



-تمهيد-

هذه المقالة طويلة، لكنها ليست أطول من النفق المظلم الذي توشك الغوفة أن تدخل فيه لا قدر الله، وكلماتها ومعانيها ثقيلة، لكنها ليست أثقل من الكارثة التي ستحل بالغوفة لو تجاهل أهل الرأي والقرار فيها المشكلة وعجزوا عن حلها حالاً يتحقق العدالة ويرضي الله.

أما الدافع إلى نشرها نشراً عاماً فأمران، أولهما أن الغرف الخاصة ضاقت عن سماع الرأي والنصيحة وأعرضت عن الاستجابة وسمحت للمشكلة بالتعاظم والتعقيد، فصار النشر العام ضرورياً ليعرف الناس أن الوقت يمضي بلا تقدم وأن الخطر يتفاقم يوماً بعد يوم، فإنْ عجزت الأصوات المفردة في الغرف والمجموعات المغلقة أن تصنع شيئاً فعسياً أن تصنعه الإرادة العامة والوعي الجمعي لجمهور الثورة الكبير.

وثانيهما أن الدعوة إلى الحل والسعادة في الإصلاح حصرت اهتمامهم بالمشكلة الكبيرة الخطيرة التي تخيم على الغوفة بظللها الكئيبة في هذه الأيام، أما أنا فإني على يقين أن حل هذه المشكلة دون حل جذورها الحقيقة سينتزع غيرها من المشكلات الجسام في قادم الأيام، ولن نزال ننتقل من مشكلة كبيرة إلى مشكلة أكبر حتى يتفجر بركان الغوفة المكتوم لا سمح الله، أو نستبق الكارثة ونعالج الأسباب والجذور، وهو ما تجتهد هذه المقالة في تحقيقه بأمر الله.

في الغوطة عدة فصائل، أكبرها وأقواها هو جيش الإسلام، وهو خط الدفاع الأول والأهم في مواجهة عصابة النظام وداعش اللتين ترسبان بالغوطة وتسعian إلى اقتحامها والسيطرة عليها. هذا يعني أن بقاء جيش الإسلام قوياً متماسكاً واجبٌ على أصحاب الجيش وعلى قوى الغوطة العسكرية والشعبية الأخرى، وهو أمر يُقرّ به أهل الغوطة وتتفق عليه فصائلها المختلفة، مما سمعت قَطّ - على كثرة ما وقع بين الجيش وغيره من مشكلات - من يجيز إضعافه أو يدعو إلى إسقاطه، معاذ الله.

نعم، إن المحافظة على قوة وتماسك جيش الإسلام أمرٌ يريد ويحرص عليه الجميع، لكنْ هل يسُوَغ هذا الهدفُ التبليء التغاضي والسكوت عن التجاوزات التي تصدر عن بعض أجهزة الجيش ومنتسبيه في بعض الأحيان؟ لا، فإن السكوت يفاقم المشكلة ويزيد الشقاق بين إخوة السلاح، وهو يدفع الغوطة إلى الانفجار ويعرضها إلى مهلكة محتملة لا قدر الله.

لقد بات معروفاً أنَّ تنظيمَ القاعدة بفروعه كلها مصدرٌ خطرٌ كامنٌ على الثورة وأنَّ له مشروعًا غير مشروعها، ورأينا الدليل على ذلك في جبهة النصرة التي عانت منها فصائلُ الشمال الكثيرةً وذاقت على يديها المُرّ المرير، فهل سيختلف الحال في الغوطة عنه في غيرها؟

لا، ليس بين نصرة الشمال ونصرة الغوطة فرقٌ إلا في القوة، فإذا تمكنت بعْثٌ وبيات فصائلُ الغوطة ضحيةً لها، فلا يصح التحالف معها ولا يجوز أن يساهم أي فصيل من فصائل الغوطة في زيادة قوتها ونفوذها، إلا إذا كان أعمى أصمّ لم يسمع ولم يبصر ما صنته النصرة في الشمال، ولا يتعلم إلا عندما يدفع الثمن من كيسه ونفسه. ومن صنع ذلك لن يضر نفسه فحسب، بل سيضر الغوطة كلها ويقذف بها إلى المجهول، فصار منعُ هذا الخطأ ودرءُ الخطر مهمّة عامة ينبغي أن يتداعي إليها ويقوم بها أهلُ الغوطة وعقالؤها أجمعون.

هل تجهل فصائل الغوطة خطر التفرق وضرر التحالف مع النصرة؟ لا، بل هي بصيرة بالأمررين معاً وهي حريصة على تجنب الخطر ودفع الضرر، مما الذي دفع بعض الفصائل في بعض الأوقات إلى الدخول مع جبهة النصرة في تحالفات دائمة أو مؤقتة وإلى الاصطفاف معها مقابل جيش الإسلام؟ هل النصرة أقرب إليها من الجيش؟ لا، بل هو أقرب والعملُ معه أوجب، وليس الفصائل خائنة ولا حمقاء، فلا بد إذن من سببٍ وجيهٍ دفعها إلى ما آلت إليه.

إنَّ معرفة هذا السببُ أصلٌ في الحل الجذري، وتجاهله لا يصنع سوى خيطة الجرح على القبح ودفع المشكلة إلى الأمام، بل إنه قد يتسبب في عودتها بعد حين بأسوأ وأخطر مما هي عليه الآن. فلنبحث عن هذا السبب، ولنجتهد في علاجه قبل أن تعرق في مفردات القضايا وفي التفاصيل والجزئيات.

إنَّ الكيانَ الكبير الذي يعمل العملُ الكبير أكثرُ عرضةً للخطأ من الكيانَ الضئيل ذي العمل الصغير. هذه قاعدة عامة، وجيش الإسلام كيان كبير يتحمل حملاً ثقيلاً في الغوطة، فلن يكون مستغرباً أن يرتكب أخطاءً وتتصدر عنه تجاوزات بين آن وآن، ولكن سيكون مستغرباًً ومستنكراًً أن لا يعالج أخطاءه ولا يحاسب المتراوين، وأن يصرّ على عدم ابتكار آليات للمحاسبة والتصحيح.

إن الجيش ليس ملك نفسه، بل هو ملك للغوطه والثورة، وله على الغوطه حق كبير، وللغيطة عليه أيضاً حق كبير. إن من حقه على الغوطه العرفان والتقدير لدوره الكبير، ومن حق الغوطه عليه ومن حق الثورة، بل ومن حق آلاف المجاهدين الصادقين الذين التحقوا به وقاتلوا تحت رايته، أن يقوم أخطاءه وينفي صفة من الشوائب، وأن لا يُضيّع جهد وجهاد خمسة عشر ألف مجاهد بسبب تجاوزات بعض العناصر والمسؤولين.

-5-

منذ وقت طويل تتوارد الشكاوى من تجاوزات ومظالم الجهاز الأمني لجيش الإسلام، ومن ثلاثة من مسؤوليه على التخصيص. لو كانت تلك الشكاوى قليلة لما بالي بها محبّو الجيش ولعذوها في الشكاوى الكيدية، ولكنها بلغت مبلغاً لا يجوز الاستهانة به ولا السكوت عنه، فالناس شهدوا الله في الأرض، وأنا نفسي تابعت ذات يوم وتوثقت من تجاوزات خطيرة لا يجوز السكوت عنها، فثمّ خاطبـت الإخوة في الجيش عبر القنوات الخاصة، ثم نشرت في نقد الجهاز الأمني نشراً عاماً، ولا تزال التجاوزات قائمة كما كانت، ولا حل لها - كما قلت ذات يوم - إلا بإصلاح الجهاز وإعادة هيكلته على أساس صحيح.

إن الثورة أكبر من الفسائل والفصائل أكبر من الأفراد، فماذا يمنع قيادة جيش الإسلام من التحقيق والمحاسبة وفصل المُسيئين؟ من ثبت عليه ارتكاب مظالم وجنایات فليُطرح في "سجن الباطون" ليتجرّع من الكأس التي جرّعها للناس، ولن ينها جيش الإسلام الذي بقي صامداً بعد استشهاد قائد المؤسس رحمة الله لو فقد بعض قادته الأمنيين.

-6-

رغم الضرر الذي نتج عن التجاوزات الأمنية ورغم إساءتها الهائلة إلى سمعة جيش الإسلام والتسبب في تردّي شعبيته في الغوطه خلال السنة الأخيرة، إلا أنها ليست السبب الوحيد الذي دفع بعض الفسائل إلى البحث عن حلّيف وإلى الارتماء المحرّم في حضن جبهة النصرة. لقد كان السبب الأقوى هو نزعة إلى التغلب ظهرت على جيش الإسلام الذي نحبه ونعيذه **بالله أن يُصَاب بعذري التغلب القاعدية**.

هذه النزعة - مع ما يرافقها من روح استعلائية إقصائية - تسببت في نفور كثير من الفعاليات المدنية في الغوطه من الجيش وباعتد الشقة بينه وبين بقية الفسائل. وقد نصّ الناصحون وألحوا على الجيش كثيراً أن يتعامل مع الآخرين تعامل الأخ الكبير الذي يتسع صدره لإخوته الصغار ويترفق بهم ويلين لهم، ولكن هذه الدعوات لم تلق استجابة حقيقة حتى الآن، فما تزال الشكوى عامة - بين فسائل الغوطه العسكرية وفعالياتها المدنية - من تسلط الجيش واستعلائه عليها في كثير من الأحيان.

-7-

يتمتع جيش الإسلام بدرجة عالية من التنظيم والكفاءة والاحترافية، وقد كان يسعه أن يحتوي غالبية القوى المدنية والعسكرية في الغوطه بالرفق واللين وخفض الجناح، ولكنه - للأسف - صنع العكس، فقد مارس على القوى الثورية والعسكرية في الغوطه ضغطاً شديداً لوقت طويـل، ولعله مارس أيضاً - سواء بوعي أو دون وعي - بعض الاستعلاء والإقصاء والتهميش.

هذا كلـه تسبـب في حالة استقطاب حادـة سيطرـت على الغوطـة وكانـ الجيش هو محـورـها، فاختـارتـ أطـرافـ (أفرادـ ومؤسسـاتـ) الانـحياـزـ معـ الجيشـ واختـارتـ أطـرافـ الانـحياـزـ ضـدهـ، وـفيـ الحالـتينـ كانـ الانـحياـزـ ردـ فعلـ عـشوـائـياـ وـسلـوكـاـ ضـارـاـ بكلـ الأـطـرافـ، وـضـارـاـ بالـغيـطةـ كلـهاـ فيـ المـحـصـلـةـ. الـطـرفـ الـوحـيدـ الـذـيـ استـفادـ منـ تـلـكـ الـحـالـةـ هوـ جـبـهـةـ النـصـرـةـ، فـهيـ تـنـغـذـىـ

على التناقضات والخلافات وتستمد قوتها من ضعف الآخرين، وخير طريقة لتحقيق تلك الغاية هي شغل الأطراف كلها وضرب بعضها ببعض، لذلك نقول إن كل طرف يساهم في تعطيل الحل وفي تغذية الخلافات وزيادة حالة الاستقطاب الحادة هو عدو للثورة وعدو للغوطه وشريك للغلاة.

-8-

أخيراً ارتكب جيش الإسلام القوي الكبير في الغوطه الخطأ القاتل ذاته الذي ارتكبته كل الفصائل الكبيرة القوية في الثورة السورية، حينما دفعتها قوتها العسكرية إلى مصادر الإرادة الشعبية وتعطيل الإدارة المدنيه وتسبيس القضاء أو تهميشه. هذا الخطأ الهائل ارتكبته عدة فصائل قوية في الشمال المحرر، وارتكبته في الغوطه جيش الإسلام.

وهكذا فقدت الغوطه كل صمامات الأمان التي كان ينبغي أن تحميها من الواقع في الكارثة، وعلى رأسها "مجلس القضاء الموحد" الذي نزع الجيش سلطاته وهبته عندما منح نفسه حق الملاحقة والاعتقال والحبس والتحقيق خارج القضاء، و"الهيئة العامة للغوطه" التي كانت أفضل مشروع للإدارة المدنيه على مستوى المناطق المحررة في سوريا، لكن جيش الإسلام حاربها وعطلها وفرّغها من مضمونها، فقضى على حلم الغوطه الجميل وعلى أرشد نموذج للإدارة المدنيه في سوريا الجديدة.

* * *

المقدمات السابقة تساعدنا على تفكيك المشكلة المزمنة في الغوطه إلى عناصرها الأولية، وعلى فهم جذور تلك المشكلة قبل الانتقال إلى حلها الذي ستقتربه الحلقة الثانية من هذه المقالة إن شاء الله.

الزلزال السوري

المصادر: